

الدولة المثلى

واتتصار العقل على الهوى

استعرض من صفحات التاريخ وحوادثه ما نشأ واذكر انقلاباً او اصلاحاً تنازع فيه السلطة والزعامة رجلاً او لها مفكر متعل لا يقول إلا ما يوحيه اليه الفكر المجرد عن الهوى ولا يعمل إلا ما تقتضيه نوااميس الطبيعة واحكام العقل والآخر تدفئة كهرباء العاطفة وحاسة الميول وتؤيده معرفة الفطرية بطبائع الجماهير ومطالبها - افوت اذكر اذا استطعت انقلاباً تنازع فيه الزعامة ورجلان مثل هذين ولم يتبع الجمهور الرجل الثاني مولياً اياه الزعامة والسلطان ؟ ولا سيما اذا كان هذا الرجل على علم واسع فصيحاً حازماً

ان رجلاً صفاته كصفات الاول يستطيع ان يرسم الخطة المثلى لاصلاح اجتماعي تام ولكنه يعجز عن تنفيذها . اما الثاني فله من كهرباء العاطفة وحرارة الايمان واندفاع المتحمسين وقوتهم قوة تسيره امام الجماهير يجتذبا ويقودها الى حيث يشاء . يفلح الثاني في تنفيذ ما يراه لانه يؤثر في غرائز الناس واهواؤ الجماهير ويفشل الاول مها تكن خطته صائبة واراؤه سديدة لانه يؤثر في قوى الادراك والقهم . ولا يخفى ان الغرائز اصول قديعة في طبيعة الانسان وان العقل من الفروع الحديثة والاصول كانت ولا تزال اصلب من الفروع واغوى

فالناس على استعداد تام للاصفاء الى ما يقوله الفلاسفة ولكنهم حينما يجيرون في اتباع فيلسوف قوال او الانقياد الى نابغة فقال شديد الحكمة يختارون الثاني قسراً لانه يقول ويفعل ما يؤثر في غرائزهم واهوائهم

هنا قولتر قدس العقل والهة وروسو ذنن بالحرية واصلاح الصران البشري . كلاهما من اكبر المفكرين الذين قاموا في اوربا وابلغ الكتاب . اصنى اليهما الناس يتحدثان ببلاغة تادرة وحجة ناضمة . على انهما لم يفلحا في ذلك الحين باقناع الجماهير بما يريدان ولم يستطيعا ان يكسرا من سلطة الملكية ولا ان يحركا الشعوب المستعبدة لتناهضة الملوك . كان تأثيرهما ذلك التأثير الصامت الخفي ولكنه لم يكن العامل المباشر لتتورة الفرنسية

ثم جاء نبوليون وهو رجل نحركة المواطنين، وثق بنفسه فوثق به الناس فقامم

من معركة الى اخرى وهم يتعمون مختارين لانه تقرر على اوتار في طبائهم حسامة
 كحسب الفتح والتوسع والملطن وتمادوا في اتباعه قهراى هو في اتباع ميوله حتى
 غير من تقاليدهم وعاداتهم وبدل من نظمهم ما لو اعتمد فيه على العقل والفكر
 المجردين لما حدث منه سوى النسيب اليسير حتى ولو جاء من فوق قولتر وروسو
 كذلك يذكر التاريخ موت سقراط الفيلسوف الحكيم وقد قامت تنازعه
 الزعامة الفكرية في ائينا جماعة يفوقهم بما اوتيه من فكر نير وعاطفة نبيلة وحكم
 صائب لكنهم فازوا عليهم لانهم اذلحوا في استئالة الجمهور اليهم والجمهور حينئذ في
 ائينا الحاكم المطلق ففوضوا ان يموت بالسم الزعاف فتناول الكاس وهو يقول اوتر
 الموت بالسم على نقض احكام بلادى . اضف الى اسم سقراط اسمي سنكا الحكيم
 الروماني وبسارك السيامي الالماني تركيف ان شهوة حاكم مستبد يؤيدها انقياد
 الجماهير قضت على رجلين من اكبر رجال الادارة السياسية في التاريخ فسلم طاغيتان
 من اكثر طغائته استبدادا زعامة مطلقة في امتين من اعظم الامم امة الرومان
 وامة الالمان

فاذا شئت ان تقنع الناس حتى يعملوا بما ترسمه لهم من الخطط فمليك ان تقنعهم
 عن طريق ميولهم لا عن طريق عقولهم اى يجب ان تؤثر في تلك القوى التي هي
 اصل في طبائهم فتأتي برجل يستطيع ان يقنعهم كذلك حتى يبت فكرك بينهم
 بالاسلوب الذي يوافقهم

يقول العقل ان السبيل الوحيدة لاصلاح السران هي ان تسير السياسة على
 قواعد من الصراحة وحسن النية والعدل . يقول العقل ذلك ويدي بادلة على تأييد
 قوله لا تدحض . لكن الحكام والساسة لا يتفكرون سالكين مسالك لا يسلم بها
 العقل بل يرتاح اليها طبع الانسان فتؤيدهم الجماهير وتخضع لهم
 والامل الوحيد للحصول على الاصلاح المنشود هو اثاره حرب شعواء لتحقيق
 ما يقضي به العقل وكبح جماح الاهواء . وعلينا ان نجد وسيلة تستخدم بها قوى
 الاهواء بطريقة معقولة تفضي الى الخير والصلاح وهذا قد لا يتم الا بعد السنين
 الطوال ولكن لا بد من ان يجيء يوم يسلم فيه العاقلون زمام الامور في هذا المجتمع
 فيتحكمون في قوى البشر ويصرفونها في المجاري الصالحة التي يراها العقل
 موافقة للاصلاح العام . فلا ينشأ بعدئذ بين الناس رجل كبوليون انتن يتفسيلا
 فساق العالم الى ما لا يطاق من التخريب والتدمير . وتظهر نبوليون في الماضي لم يكن

ذا خطر كبير على المجتمع الاساسي لان ما كان بمحدثه من التدمير في بلد من البلدان كان محصوراً لا يتعداه الى سواه نقلة الارتباط بين مختلف البلدان حينئذ. على ان الناس جادون في سبل التقدم ولا شك في ان العمران سيبلى ببطء بعيداً من شدة الارتباط واعتماد بعضه على بعض حتى اذا اصابته صدمة اخرى كروب ببوليون او كالحرب الكبرى حلت اجزائه وفككت روابطه وتركته خراباً

وعلى رجال العقل في المستقبل ان يبتنوا بتحديد المجاري التي تنصرف فيها قوى الاهواء كما يحدد المهندسون مجاري الماء المنحدر فيستخرجون منه قوة كهربائية تدير المعامل وتبر المدن وتستخدم في الوف الاعمال الصغيرة والكبيرة

ولاحصول على ذلك يتحتم على الذين يديرون بالتمثيل والزنا ان يتألفوا ويتحدوا لكي يفتصبوا السلطان من الذين يجب ان يقادوا لينتفع العمران بهم. على هذه الاركان تقوم الدولة المثلى

— رؤيا —

في الدولة المثلى يُقسم البشر الى طوائف وطبقات فلا يكون الفاصل بينهم لون العيون او الشعر او البشرة بل يقسمون حسب قواهم العقلية والنفسية. ويكون علماء النفس قد بلغوا من الكمال في علمهم درجة قصوى فيستطيعون ان يعرفوا قوى الطفل حين ولادته فيضمونه في الطائفة التي يجدر به ويجدر بها وهناك ينال من التعليم والتدريب ما يمدّه لقيام بمطالب الطائفة الذي ينتمي اليها

وام الطبقات الكبرى ثلاث هي طبقة ذوي العقول المدبّرة وطبقة رجال التنفيذ وطبقة العامة. ففي الطبقة الاولى تجد اصحاب العقول الكبيرة الذين فكوا قيود العبودية الفكرية فانطلق امامهم مجال الفكر والبحث حراً من اغلال الوراثة وقيود التقاليد فاجبوا على درس مشاكل الحياة درساً علمياً. هؤلاء يُسَلَّمون مفايد السلطة والحكم ولكن العقل المجرد لا يستطيع ان يسيّر العامة لانه لا يؤثر فيهم الا من يخاطبهم عن طريق غرائزهم واهوائهم فلذلك يستخدم رجال السلطة رجال العمل الذين يحرّكهم عواطفهم واهوائهم وهم على استعداد دائم للموت في سبيل معتقداتهم. هؤلاء الرجال الذين لهم قوة لا تُحَدُّ على صنع الخير او اجتراح الشر لا يؤذن لهم في الدولة المثلى بان يندفعوا وراء تلك الاهواء سواء كان في ذلك خير للدولة او خيراً بل يقيدهم رجال الحكم اي رجال العقل بما يريدون فيستخدمون ما فهم من قوة

على تنفيذ الخطط المثلى التي يحكم العقل بافضليتها فلا يعنى العالم بعد ذلك بأشكال نيرون أو نيوليون أو غليوم

و الرجال الذين يمينون بين رجال التنفيذ بحجب ان يلقنوا في حداتهم الدروس من ذوي العقول المدبرة فيخرجون الى الناس يدعون بما فيهم من قوة وسحر وناز الى تنفيذ الحقائق التي تهيئها لهم جماعة العقول المدبرة . وحالما تم دعوة من هذه الدعوات او حينما ينتهي اجل فائدتها تعد العقول المدبرة افكاراً جديدة وخططاً جديدة تلائم الاحوال الجديدة وتبعتها في قموس جيل جديد من رجال العمل فيدعون اليها وينشرونها بين افراد العامة

والعامة هم القسم الثالث والاكبر في الدولة المثلى . يتألف هذا القسم من ناس لا يملو بهم الادراك الى الصف الاول ويهبط بهم ضعف الايمان وقلة الثقة بالنفس الى دون الصف الثاني

حينما ترى العقول المدبرة ان العامة تحتاج الى حركة فكرية تجمع شملهم حول فكرة نيرة او تفقد عزائمهم حول مأرب بعيد يمشون بجيوش اهل الثقة بدعوتهم الى ذلك . وحينما لا تكون العامة محتاجة الى مثل هذه الدعوة يشتغل رجال التنفيذ بتعليمها وتهذيبها حتى يستخدم ما فيها من القوى الكبيرة الحافلة بالممكنات العظيمة في سبيل تعود بالخير والنفع على الدولة . وذلك على اسلوب علمي دقيق تضعه جماعة العقول المدبرة بعد ان تدرس مقدماته ونتائجها وتوازن بين حسناته وسيئاته

ثم يستخدم ما في العامة من استعداد للاستهواء على اسلوب يعود عليهم بالعبادة والرخاء فيثبت رجال التنفيذ فيهم يقنعونهم بانهم سعداء وان لهم مقاماً رفيعاً في نظام الكون وان كل ما يفعلونه نيل شريف . وافراد العامة في الدولة المثلى يشتغلون ثمانى ساعات في اليوم ويخضعون لمن هم اعلى منهم فكراً واقوى عزيمته واوطد اجاناً وفي خضوعهم هذا راحة وسعادة . يعتقدون بعظمتهم وعلو مقامهم في نظام الكون ويشقون بخلود نفوسهم . تلك سعادتهم المشوذة . سعادة لم تدن منها جماعة من البشر حتى الآن . فيسيرون في مسالك الحياة كأنهم على طريق تحف بها الورود والرياحين ويشملون بجمرة لا يصحون منها . اما رجال التنفيذ فهم الساقون في هذا العيد الكبير — بلاؤن الاقداح من الاكبر الصافي الذي تقطره العقول الكبيرة المدبرة ، خلاصة الانسانية المختارة

فؤاد صروف